

الحركة بالدين سبيل الصادقين

[٢]

العتيق أبو البراء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الكرام وصحبه الغر الميامين، وبعد:

في هذه الحلقة، أحببتُ أن أبدأ بمسألة مهمة لها علاقة جوهرية بقضية الحركة بالدين، وهي:

ما مشكلة الجماعات المعاصرة؟ ولماذا لم يُمكَّن لها وقد وُجدت عند بعضها أسباب التمكين فيما يظهر؟

من ينظر إلى الجماعات في الساحة اليوم، يجدها تنقسم إلى قسمين –في سبيل تغيير الواقع أو إصلاحه–:

صنفٌ حركيّ أجاد في العمل للدين، وأقام شعيرة الجهاد الغائبة منذ أمد بعيد، وبذَل الغالي والنفيس. لكن الخلل عنده كان في عدم تحقيق التوحيد الذي جاء به المرسلون. فمنهم من دخل في مجال السياسة تحت ظل النظام العالمي، ورضَخ لأحكامه وقوانينه، ورأى أنّ هذا هو الحل الوحيد. في حين فرّط في البحث عن أهم مسألة يسعى جميع المصلحين إلى الكلام فيها، وميّعها، بل جعل الاهتمام بها سببًا للفرقة والشتات، وسببًا لتأليب الحاضنة المشركة عليه، وهي: الدعوة إلى الإسلام الحنيف القائم على البراءة من الشرك وأهله، وتصحيح العقيدة عند الجموع المشركة بعدما دخلها التحريف والبدع.

وصنف آخر تكلّم في العقيدة والتوحيد على ضلال، وانحرف في تأصيله وطرحه، وظنّ أنّ تغيير الواقع أو إصلاحه لا يتجاوز هذا المنهج، وأقام عليه الولاء والبراء، وسقّه الحركيّين ورماهم بكل نقيصة. وهذا الصنف من أبعد الناس عن العمل لدين الله والسعي إلى إقامة سلطان الله في واقع الناس؛ إمّا جُبْنًا وهلعًا متمكِّنًا في نفسه –وهذا هو الغالب–، أو كسلًا وتلبيسًا من إبليس. لذلك لا يستهويه الكلام عن مسائل الحاكمية ووجوب إفراد الله بها كما يجب إفراده بالعبادة سواء بسواء، وينفرّ من مسألة الجهاد وإقامة الجماعة المسلمة، على عكس الصنف الأول.

والآن، ما المنهج الصحيح للتعامل مع الواقع المصادم لشرع الله؟ وما السبيل للخروج منه إلى واقع تكون فيه الهيمنة واليد العليا لشرع الله وحُكمه؟

حتى نفهم هذه القضية العظيمة، لا بد أن ندرك أنّ الإسلام دين شمولي جاء ليغيّر الواقع تغييرًا جذريًّا، بدءًا من أعظم أمر يتعلق بالعقيدة والتوحيد –بما في ذلك إفراد الله بالحُكم والتشريع–، إلى علاقة الرجل بابنه وأهله، حتى شمل آداب دخول بيت الخلاء.

فجاء الإسلام يأمر الناس بالانخلاع من عبادة الأصنام والأوثان، والبراءة منها ومن أهلها المشركين –أفرادًا كانوا أو أقوامًا–، وحصرِ العبادة في واحد لا يستحق العبادة غيره، وهو الله سبحانه. كما جاء الإسلام يأمر الناس بالكفر بالنظام الجاهلي القائم، والكفر بأحكام الكهّان والطواغيت التي تُنازع الله في الحُكم والتشريع والطاعة، وردّ هذا الحق المغتصَب إلى الله تعالى، فهو

الحاكم المشرّع المطاع وحده، كما أنه الإله المعبود بحق لا شريك له. وجاء الإسلام ليقرر العقيدة بشموليتها فيما يتعلق بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، والبعث، والجنة والنار، وخلق السماوات والأرض، وما يدخل في هذه الأصول ويتفرّع عنها. فمن دعا إلى قسم من هذه الأقسام وفرّط في الآخَر، فلم يدعُ إلى الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ، بل دعا إلى دين مغاير لدين الإسلام، إذ إنّ الإسلام هو مخاطَبة الناس وحملهم على هذا الدين بشموليته.

من هنا نصل إلى الجواب عن الشق الأول من السؤال؛ فبما أنّ المجتمعات العربية والأعجمية قد أشركَت بالله في العبادة، وعبدَت الطواغيت، وصرفَت لها الحاكمية والطاعة من دون الله، ونصّبَت البشر حكامًا ومشرّعين لها، مع ما دخل عقائدها من فساد في أبواب الأسماء والصفات، والإيمان والكفر، وغيرها من أبواب الدين؛ فإنّ المنهج الصحيح للتعامل مع هذا الواقع المصادم لشرع الله، هو تغيير عقائد الناس الباطلة، وما يتبع ذلك من المعاملات الفاسدة ونحوها، وكذلك تغيير النظام القائم المصادم لشرع الله، وإقامة سلطان الله في الأرض بردّ الحكم والتشريع كله لله. وهذه الجماعات المعاصرة قاطبةً -الحركية أو الخاملة- فرّطت في جزء من هذه الشمولية، فلم تُحقق التغيير الذي أحدثه الرعيل الأول بمنهجهم الشمولي؛ عقيدةً وحركةً.

ومن العلم ندلف إلى العمل، فنُجيب عن الشق الثاني من السؤال، فنقول: إنّ الرسول ﷺ كان حاضرًا في ذهنه منذ اليوم الأول معنى الجماعة المسلمة والسعي إلى إقامتها؛ لتكون موازية للنظام الجاهلي ومباينة له، ولتتحقق سنّة المدافَعة التي نصّ الله عليها في كتابه في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولم يكن عنده ﷺ -وهو المؤيَّد بالوحي ينزل عليه صبح مساء- سبيلٌ لتغيير واقعه الجاهلي إلا بسُلطة وقوة مرهوبة الجانب؛ فإنّ الملأ الكفار لا يرضيهم أن تُسحب من تحت أيديهم الهيمنة والمصالح القائمة بوجود الجاهلية ويبقوا مكتوفي الأيدي، فلا بد من قوة تُصادم طغيانهم وتَعنّتهم في سبيل المحافظة على الوضع القائم، وهذا لن يتحقق من دون سُلطة وكفاح مسلح، فعمِل ﷺ على ذلك بتنظيم صفوف المسلمين والبحث عن الحاضنة التي تحمي دعوة الإسلام، حتى شرّف الله الأنصار بهذه المنقبة العظيمة، فبايعوا رسوله ﷺ على قتال الناس كافة، وحماية دينه بإقامة الجماعة المسلمة الأولى.

ومن هذا تدرِك أنّ طلب الحُكم والسلطان أمرٌ ضروري للمسلمين في سبيل إقامة سلطان الله في الأرض، ولن تتحقق هذه الغاية العظيمة إلا بذلك؛ فالناس تَحترم عقيدة صاحب السلطة -ولو كانت تافهة مبتذَلة-، وتَحتقر المسلم -وهو يحمل عقيدة عظيمة- إن لم يكن في موضع قوة وبيده المُلك. وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن كل مسلم؛ وهي أنّ طلب المُلك من صميم الدين، وبه يتحقق التوحيد، وكما مَرَّ، فإنّ من أقسامه التي لا يصحّ إلا بها: إفراد الله بالحُكم والتشريع، وهذا لن يتجسّد في واقع الناس إلا إذا كان المُلك والسلطان بيد المسلمين، يحكمون في كل صغيرة وكبيرة بشرع الله الذي ارتضاه لهم.

وتأمّل حال مكة عند البعثة، لمّا كانت تحت حُكم أبي جهل عمرو بن هشام، كان العرب كلهم على شرك وجاهلية جهلاء، وهذا النظام نفسه هو الذي أذاق المسلمين الويلات؛ لأنهم قالوا: «ربنا الله». ثم لمّا تغيّر الحُكم في مكة بعد الفتح، وصار بيَد النبي ﷺ، علَتها أحكام الشريعة، وآمنَت العرب بهذا الدين الجديد المصادم للدين والنظام الجاهلي القديم.

ولو لم تعلُ مكة أحكام الإسلام، لبقي الناس على كفرهم ولمَا أحسّوا بجديّة هذا الدين! فليس طلب المُلك ممّا يُذم به صاحبه مطلقًا، إلا إذا كان لطلب الدنيا، وأين هذا ممّن يسعى إلى نيل رضا الله، وإقامة شرعه وسلطانه في الأرض، حتى يكون الدين كله لله؟

وهذا الأمر أدركه كفار قريش من دعوة النبي ﷺ، فعلموا أنّ الإسلام عقيدة، وسياسة، وشريعة، ونظام مُلك. فهذا عتبة بن ربيعة، حينما ذهب يفاوض النبي ﷺ بعدما انتشرت بينهم الدعوة المحمدية، ثم رجع إلى قومه، فكان ممّا خاطبهم به، أن قال: «يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزِلوه؛ فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ. فإن تُصبه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب، فمُلكُه مُلكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكُنتم أسعدَ الناس به» [البداية والنهاية لابن كثير: ١٦٠/٤].

فتأمّل قوله: «فإن تُصبه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم»؛ وفيه أنّ الدين جاء ليُصادِم الأوضاع الجاهلية، ويجتثّها من جذورها، ويحمل الجميع على دين الله. وتأمّل أيضًا ما فهمه عتبة من كلام النبي ﷺ، في قوله: «وإن يَظهر على العرب، فمُلكُه مُلكُكم»؛ ففيه دلالة واضحة على أنّ الدين جاء ليَحكم البشرية، ويُهيمن عليها بشرع الله، وينقذها من الشرك والضلال. وهذه الحقيقة العظيمة التي يجب على أتباع الدين الحنيف تحقيقها في الواقع؛ ليتبوّؤوا المكان الذي وضعهم الله فيه وأوجدهم لأجله.

وكان المشركون يعلَمون ممّا فهموه من دين النبي ﷺ، أنّ المسلمين طلاب مُلك وسلطان، فهذا الأسوَد بن عبد يغوث، كان يقول لأصحابه ساخرًا: «قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر»؛ استهزاءً بالمسلمين المستضعَفين، وما ذلك إلا لأنّ النبي ﷺ كان يَعِدُ أتباعه ويُهيّئهم لقيادة البشرية.

قال الوليد بن مسلم: «حدّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، أنّ شيخًا من شيوخ الجاهلية القُساة، قال: يا محمد، ثلاث بلَغني أنك تقولهن، لا ينبغي لذي عقل أن يصدّقك فيهنّ، بلغني أنك تقول: إنّ العرب تاركة ما كانت تعبد هي وآباؤها، وإنّا سنَظهر على كنوز كسرى وقيصر، وإنا سنُبعث بعد أن نَرِمَّ. فقال رسول الله ﷺ: أجل، والذي نفسي بيده، لتترُكَنّ العرب ما كانت تعبد هي وآباؤها، ولتظهرَنّ على كنوز كسرى وقيصر، ولتَموتَنّ ثم لتُبعثَنّ، ثم لآخذَنّ بيدك يوم القيامة فلأذُكرنّك مقالتك هذه. قال: ولا تَضلُّني في الموتى ولا تنساني؟ قال: ولا أَضلُّك في الموتى ولا أنساك. قال: فبقي ذلك الشيخ حتى قُبِض رسول الله ﷺ، ورأى ظهور المسلمين على كنوز كسرى وقيصر، فأسلم وحسُن إسلامه، وكان كثيرًا ما يسمع عمر بن الخطاب ﷺ نحيبه وبكاءه في مسجد رسول الله ﷺ؛ لإعظامه ما كان واجه به رسول الله ﷺ، وكان عمر يأتيه ويُسَكِّنُ منه، ويقول: قد أسلمتَ ووعدَك رسول الله ﷺ الوُدَّ أن يأخُذَ بيدك، ولا يأخُذُ رسول الله ﷺ بيَد أحد إلا أفلح وسعِد، إن شاء الله» [البداية والنهاية: ٣٥٦/١٩].

وممّا يزيدك وضوحًا في فهم هذا المنهج الحركي النبوي، أنّ الدين إذا كان في موضع قوة، وبيَد أصحابه المُلك، أقبل عليه الناس وآمنوا به، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢]. فلم تؤمن العرب كافةً وتدخل في الدين إلا بعدما فُتحت مكة، وصار الإسلام ظاهرًا ومهيمنًا على الجزيرة العربية. بينما في مكة قبل الهجرة، حين كان الصحابة ﷺ بلا سلطان، تعرّضوا لصنوف الأذى والعذاب والاضطهاد، فكان صعاليك مكة يتجرؤون على رسول الله ﷺ وخيار الصحابة، ولا يُخيفهم شيء.

وهذا المعنى بيّنه شاعر رسول الله ﷺ، حسان بن ثابت رضي الله عنه، إذ أخبر كيف تعامل المشركون معه ﷺ وهو في مكة مستضعَفًا، وكيف رهبوا جانبه لمّا صار ذا منعة وسُلطان، فقال:

دَعَا المُصْطَفَى دَهْرًا بِمَكَّةَ لَمْ يُجَبْ

وَقَــدْ لَانَ مِــنْــهُ جَــانِــبٌ وَخِــطَــابُ

فَلَمَّا دَعَـا وَالسَّيْـفُ صَلْتٌ بِكَفِّهِ

لَهُ أَسْلَـمُوا وَاسْتَسْلَـمُـوا وَ أَنَابُـوا

إنّ هذا الدِّين يوجب على أتباعه أن يحملوه ويبلّغوه للناس كافة، حتى يذعنوا لحُكمه وسلطانه، ويكفروا بكل حُكم وشرع سواه، وذلك لن يتحقق إلا إذا كان المسلمون أصحاب حركة وسلطان، ويتحمّلون في سبيل ذلك ما يعترضهم من عقبات، ويبذلون الغالي والنفيس لتكون كلمة الله هي العليا. هذا الاستعلاء بالدين، ومعرفة أتباعه ما يريده منهم، هو ما يجعلهم سادة الأرض، فينظرون إلى قوة الكفار المادية نظرة ندٍّ لندٍّ. فإذا كان المشركون يقاتِلون بالعدة والعتاد فقط، فإنّ المسلمين يقاتِلون بإيمانهم وحُسن توكلهم على الله، ويتحرّكون بمعونته تعالى لإقامة دينه، مع أخذهم بالأسباب والعدة المطلوبة.

وهذا المنهج الذي أسّسه النبي ﷺ، وغرسه في نفوس أصحابه؛ ساروا عليه بعد موته، وتحرّكوا به، فتولّدت منه الفتوحات العظيمة التي توسّعت فيما بعد، حتى بلغَت من الصين شرقًا إلى جنوب فرنسا غربًا، وكان الصحابة وأتباعهم أمراء تلك البلاد المفتوحة، وصدق فيهم ما قاله الأسوَد بن عبد يغوث مستهزئًا: «قد جاءكم ملوك الأرض». ولولا هذا المنهج الحركي الذي تربّوا عليه في المدرسة النبوية، لمَا بلغ الدين ما بلغ.

فهؤلاء السّلف الصالح والقدوة للمؤمنين من بعدهم إلى قيام الساعة، فمن أراد تغيير واقعنا الجاهلي اليوم، فلا بد أن يحمل هذا المنهج الحركي القويم كما حمله أولئك الأفذاذ، ويقيم الدين بمعناه الشمولي الذي جاءت به الشريعة، تامًّا غير منقوص، فلا يختزل الدين في توحيد العبادة فقط، أو توحيد الأسماء والصفات فقط، أو توحيد الحاكمية فقط، ولا يعتني بالحركة والسياسة فقط ويهمل جانب العقيدة والتوحيد، ولا يهتم بالأخلاق والفضائل فقط ويرى أنّ هذا هو المَخرج من الواقع. فكل ذلك مخالف للإسلام الذي كان عليه الرعيل الأول، وهو حمل الدين بشموليته، اعتقادًا له، وعملًا به، وتبليغه إلى كافة البشرية. ولا يكون ذلك إلا إذا كان المسلمون أصحاب سُلطة وقوة، وتحرّكوا بدينهم، حينئذ يتحقق موعود الله تعالى، الذي وعد به المؤمنين في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

هذا الطريق الأوحد، ولا طريق غيره للنهوض بالدين، فمن سار عليه فقد أصاب السنّة ووصل بإذن الله، ومن تنكّب عنه واتّبع منهجًا مغايرًا فهو على بدعة ومخالفة لسبيل المؤمنين، ولن يغيّر شيئًا من الجاهلية المعاصرة، وكان جهده إلى ضياع وشتات.

ومن التصوّر الخاطئ للإصلاح، ما يظنه بعض الناس، أنّ الحركة بالدين—وما يتبعها—لا تكون إلا بعد إصلاح جميع الناس، فيبقى المسلمون ينتظرون صلاح الناس كافةً حتى يقيموا ما أوجب الله عليهم من إقامة الجماعة المسلمة. وهذا خلل كبير وبدعة من القول ومخالفة لهدي النبي ﷺ وصحبه. وهذا الفساد المستشري في الناس، منه ما هو متعلق بحقيقة الإسلام وهذا لا بد من تصحيحه بتقرير العقيدة الصحيحة قبل الشروع

في العمل. وهذا خاص بالطليعة المسلمة المكلفة بالعمل والبذل، وليس شرطًا أن يكون جميع الناس على ذلك حتى يبدأ السعي في سبيل تلك الغاية.

ومن الفساد الموجود، ما يمكن تغييره أثناء العمل والحركة؛ كالجهل ببعض المسائل العقدية الخبرية التي لا تُخِلّ بأصل الدين ابتداءً، فالمسلمون لن يكونوا جميعًا على مرتبة واحدة في العلم بمسائل العقيدة، وما كان هكذا الرعيل الأول الذين بلّغوا دين الله مشارق الأرض ومغاربها. ومنه ما يستقيم ويزول بعد قيام الجماعة التي تقيم الحدود الشرعية، وتحتسب على الناس بأمر الله ونهيه، فيرتدع ضعيف الإيمان عمّا هو عليه من ركوب المعاصي والكبائر.

وهذا التعنّت الذي تراه عند كثير ممّن ينتسب إلى الدين، والتحجّج بفساد الناس، والخلاف في بعض الفروع مع المسلمين، واتخاذه ذريعة لترك العمل للدين؛ لَهُوَ من تلبيس إبليس ليزيّن لهم ما هُم فيه من قعود وكسل عن الحركة بالدين. فإذا ارتفعَت همّة أحدهم للعمل، فلا يعدو أن يقرأ «كتاب الجهاد» لعبد الله بن المبارك، أو ينشر أحاديثًا في بيان فضل الجهاد والمجاهدين، فيخادع نفسه بأنه يحدّثها بالجهاد، وهو لا يتقدّم خطوة إلى الأمام ولو بالشيء المقدور.

ولا يشك مسلم أنّ الدعوة السلمية لها أهمية بادي الأمر؛ حتى يجتمع المسلمون الصادقون العاملون لدين الله، وهكذا كان الرسول ﷺ، ولكن لا بد أن تكون عند تلك الطليعة المؤمنة من الوعي الحركي، واليقين بموعود الله، والبذل للدين الذي تُغيّر به واقعها إلى ما يرضي الله تعالى، وأن يكون لديها نشاط وحماس وهمّة للعمل؛ فتتقدّم الصفوف، وتحمل همّ الدين، وتصبر على ما تلقى في سبيل ذلك، فهذا كله من تحقيق العبادة التي أوجَد الله الخَلق لأجلها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ومن التصوّر الخاطئ للإصلاح، ما يظنه بعض الناس، أنّ الحركة بالدين–وما يتبعها–لا تكون إلا بعد إصلاح جميع الناس، فيبقى المسلمون ينتظرون صلاح الناس كافةً حتى يقيموا ما أوجب الله عليهم من إقامة الجماعة المسلمة. وهذا خلل كبير وبدعة من القول ومخالفة لهدي النبي ﷺ وصحبه. وهذا الفساد المستشري في الناس، منه ما هو متعلق بحقيقة الإسلام وهذا لا بد من تصحيحه بتقرير العقيدة الصحيحة قبل الشروع في العمل.

وأخيرًا، أختم بكلام طيب لابن القيم، يبيّن المنهج الحركي للصحابة ﷺ، وكيف جمعوا بين العلم والحركة، وهو ما كان سببًا في فتحهم للبلاد والعباد، فقال: «فالفروسيّة فروسيّتان: فروسيّة العلم والبيان، وفروسيّة الرّمي والطِّعان. ولمّا كان أصحاب النبي ﷺ أكملَ الخَلق في الفروسيّتين، فتحوا القلوب بالحُجّة والبرهان، والبلاد بالسّيف والسّنان. وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، ومَن عَداهما فإن لم يكن ردءًا وعونًا لهما فهو كَلٌّ على نوع الإنسان. وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسولَه بجدال الكفار والمنافقين، وجِلاد أعدائه المُشاقِّين والمحارِبين، فعِلمُ الجدال والجِلاد من أهم العلوم وأنفَعها للعباد في المعاش والمعاد، ولا يَعدِل مداد العلماء إلا دم الشهداء. والرِّفعة وعلوُّ المنزلة في الدارَين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعيّةٌ لهما، منقادون لرؤسائهما» [الفروسية لابن القيم: ص١٥٧].

نسأل الله أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وأن يختم لنا بالإسلام والشهادة.

* * *

والحمد لله رب العالمين.